

[٣١] الوافدة ^(١)

حدثني من ليس عندي بمتهم :

كثر القيل والقال عنها عندما نزلت بلدتنا واستنعمت مرقدتها عندنا ،
ونفقت بضاعتها بين ظهرانيها .

فهي تداوى المرضى بالحجب والتمايم وتقارب بين القلوب النافرة بالقراءة
والبخور ، وتسعى لجمع الحبيب بالحبيب بالعطور والندور ، إنها امرأة من البادية
في الثلاثينات من عمرها قصيرة القامة نحيفة الجسم سمراء اللون ، كالحة
الوجه ، غائرة العينين ، تقرأ في وجهها أمارات الخبث ، ممزوجة بالمر
والدهاء ، لها تجربة في الحياة وخبرة في طبائع الناس .

اتخذت من عقول الناس مزرعة ، ومن دينهم وسيلة ، ومن سذاجتهم سبباً
للرزق ، ورغم كل ذلك فاسمها الشیخة ، لقد آمن الناس بكلامها إيمانهم
بالقرآن ، وصدقوها تصديقهم للرسول ﷺ ، وتهيبوها كما تهيبون الله ، تقول
فيصدقون ، وتأمّر فيتبعون ، وتنهى فلا يعصون ... ! .

زعمت أنها ولية من أولياء الله فلم ينكروا كرامتها ، وادعت أن لها أخوة
من الجن فلم يجحدوا أخوتها ، وقالت : أنها تطلع على الغيب فصدقوها
وسبحوا بحمدها ... ! .

قابلت غباء الناس بفطنتها ، وجهلهم بخبرتها ، وبساطتهم بمكرها ، لقد
أقبلت عليها النساء من جميع أطراف البلدة ، وكل واحدة ولها مصب وعندها

(١) قصص هادفة من واقع الحياة لمحمود درويش ١ باختصار ٢ .

مشكلة ، هذه تخلف عنها حظها ، وتلك نبا بها زوجها ، وثالثة جفاها خطيبها وأخرى قاطعها حبيبها ، وتلك تشكو ضررتها أو تحسد جارتها ، وغيرها غار لبنها ، أو تشكو عدم الحمل ، أو تضيق بكثرة الولد ، ومنهن من تسأل عن ولدها المسافر ، أو تطلب لزوجها الرزق ، أو تستشفى لابنها المريض ، وبعضهن يقتبس البركات ويطمحن إلى أن يصبحن شيخات ، وأما اللواتي طالبات المال ، الطامعات في الثراء فما أكثرهن ، وقد علمن أن هذه الوافدة تحول المعادن إلى ذهب ، وتكشف الكنوز وتعلم ما في الخزائن

ومن عجيب الطباع أن هؤلاء النسوة يتطوعن لنشر شأن الوافدة دون مقابل أو تكليف ، فلا تلبث الواحدة منهن بعد أن تغادر مقر الوافدة حتى تتحول إلى داعية لها ، ساعة لتعريفها للنساء ، وما أكثر ما تتزيد النساء في الحديث ، وما أكثر ما يختلقن الأخبار ، فما أسرع ما انتشر خبر الوافدة في القرية وفي القرى المجاورة ، وما أشد ما ذاع صيتها ، وبعد صوتها في سائر الوادي ...

والناس أصناف في ذلك ويختلفون باختلاف الرغائب والحاجات ، فقد أقبل الناس ينشدون المحبة لديها ، وآخرون يبتغون الثروة ، وغيرهم ينشدون الغيبيات وقضاء الحاجات ، ولذلك راحت الوافدة تغالى بالقيمة وتضن بالمقابلة ، وتقبل بعض القضايا ، وترفض بعضها ، إما مغالاة بالثمن وتشويقاً لصاحب الحاجة ، وإما تعللاً بكثرة المشاغل ...

بالغباوة ابن آدم ، كيف يتعلق بالأوهام ويهيم وراء المستحيلات ويصدق مالا يصدق ، ويتعلق بما ليس بكائن ...

● أراك يا « أبا كمال » مأخوذاً بهذه الوافدة حتى أنزلتها منك منزلة الأولياء ؟ .

- وما هو وجه الغرابة يا « أبا حسين » ؟؟ .
- وجه الغرابة أن تتمكن امرأة من العبث بعقول الرجال يا « أبا كمال » .
- تسمى كراماتها عبثاً ؟ اتق الله يا « أبا حسين » ..
- إذن ما تسمى تصرفاتها وشعوذاتها يا « أبا كمال » .
- وزعم أبو كمال أنه قدم للوافدة قطعاً من النحاس ، وأنها قرأت وعزمت ، وقدمت بين يديها فتحول النحاس الصدىء إلى ذهب خالص ، وشاعت رواية أبو كمال في القرية وانتقلت منها إلى القرى المجاورة ، فأقبل الناس أفراداً وأزواجاً كل يقدم للوافدة ما لديه من ثمين المعادن لتحويلها إلى ذهب ، وعندما رأت الوافدة الإقبال على هذا المطلب راحت تشتت على زبائنها وتقسو في الشروط ...
- فهى لا تقبل من المعادن سوى الفضة لتحويلها إلى ذهب أو الذهب لتنميته وتكثيره .
- ولابد لصاحب الحاجة أن يقدم بين يديه ثلاثة ديوك سود كاملة السواد أو بيض كاملة البياض ، أو جدى أو خروف خاليين من القرون ، لا أعرج بين العرج ولا أجزع ظاهر الجزع ، ليكون ذلك قرباناً لله ، ووليمة إلى أبنائها من أبناء الملك الأحمر من ملوك الجان ... وأن لا يتصرف خلال مدة لا تقل عن الشهر بما يؤذى الجان ، لأن ذلك يفسد العمل ، ويجعل الجان تتأثر منه ومن أسرته وهذا الشرط الأخير كان صمام الأمان بالنسبة للوافدة ، وبه تتمكن من التنصل من تعهداتها كلما لزم الأمر ورغم هذه الشروط القاسية فقد ورد عليها من الذهب والفضة ما يغنيها مدى الحياة ...
- وعندما انقضت المدة وحان الأجل المضروب أقبل الناس يتفقدون الذهب

الابريز ، وما كان أشد خيبتهم عندما زمجرت الوافدة فى وجوههم زاعمة أنهم خالفوا الأوامر ، وارتكبوا الإثم تجاه إخوتها من الجن ، وأنها بذلت من جهدها ومن جاهها حتى صرفت أخوتها عن معاقبتهم ، إذ كانوا عازمين على « لطشهم » والانتقام منهم ، وكان الناس ينصرفون وتكاد تنخلع قلوبهم فرقاً من الجان ومن « لطشها وبطشها » بعد أن يشكروا الوافدة لما أسدت إليهم من معروف ، ودفعت عنهم من « متلوف » ويتكرر المشهد ، ويتكرر الناس ساهين سادرين يرون العبرة فى غيرهم ولا يعتبرون

ومكنت الوافدة لنفسها المقام ، ومكن الناس لها الإقامة وتفننت بشتى أساليب الشعوذة والخديعة ، وقد اتخذت لائحة أشبه بلائحة الأطباء على أبواب العيادات ، فجعلت سعر المحبة غير سعر الخطبة وسعر الزواج غير سعر الطلاق ، وللاتصال بالحلل سعر والاتصال بالحرام سعر

ولقد كان للوافدة مشاريع كثيرة ذات أهداف متعددة منها : ابتزاز المال ، وتوطيد المكانة والمقام ، ومنها أمور فيها كثير من الإثم والفسوق وكثير من اللذة والمتعة ، وكانت تعلم أن هذا الأخير أصعب مراماً وأشق منالاً من السابقين ، لذا أنها ليست على جانب من الجمال ، وليست لها حظوة لدى الشباب ، لذا فقد زعمت أن لها أختاً من الجان تسمى مليكة ، وهى على جانب من الجمال وأنها من الرهط المؤمن من الجن ، فهى بنت الملك الأبيض من ملوك الجان ، وما زالت تضىف عليها من الصفات الحسنة والخلق الكريم ، وما زالت تجرى على يديها الكثير من الخدمات لطالبات تلك الخدمات ، وتعلن أنها تعطف على بنات الإنس ، وتحت مساعدهن ، وقضاء حوائجنهن دونما طلب منفعة وابتغاء غاية من غايات بنات الإنس ، حتى عرفت جميع النسوة خبر هذه

الأخت ورحن يتحدثن عن أخلاقها الكريمة ، وخلالها الحسنة وأصبح ذكر هذه الأخت في كل بيت وعلى كل لسان ، وقد أحبها النساء فضلاً عن الرجال

وكان في بيت « أبو كمال » مضيف الوافدة شاب وسيم الطالعة حدث السن ، يتسم بالأناقة ويتصف بجودة الحديث ، اسمه « كمال » وكان بحكم وجوده والوافدة في بيت واحد ، لا بد أن تتلاقى أنظارهما ولو لمأماً ، أما كمال فربما ابتسم لها ابتسامة تلتطف وأدب ومجاملة ، وأما الوافدة فربما كانت تتأمل ذلك الفتى من خصائص الباب ومن وراء الحجاب ، وربما أعجبها وربما وجدت فيه ضالتها ، وربما عمل عمله داخل قلبها دون علم منه أو دراية ، وسواء كان هذا أم ذاك ، وسواء صدق حدسنا أم لم يصدق فقد عازمت الوافدة أن تقوم بعمل حاسم للوصول إلى هذا الشاب ، وبدأت ترسم الخطة وتعمل على هذا المشروع لدفعه إلى حيز الوجود .

لقد أبدت الوافدة رغبتها بتزويج أختها الجنية « مليكة » من هذا الشاب ، وأسرت بذلك لوالدته وأبيه وكانا مأخوذين في مقام الوافدة ، مسحورين في ولايتها ، فما لبثا أن رحبا بهذه الفكرة وباركا هذا المشروع وسارعا إلى ولدهما « كمال » يزفان إليه رغبة الوافدة ويحملانه على الموافقة على هذا الزواج .. ودار بين كمال وأم كمال هذا الحديث :

الوالدة : ما بالك يا ولدى لا تفكر بما يفكر به أترابك ، ولا تهتم بما يهتم به الشباب ؟؟ .

كمال : ماذا تريدني مني وأنا لا أزال في أول الشباب .

الوالدة : إنني أرغب أن أراك زوجاً في حياتي يا كمال وأن أرى لك بيتاً

وأولاداً مثل باقى الناس .

كمال : وهل فكرت لى بعروس قبل هذا الحديث يا أماء ؟ .

الوالدة : نعم فكرت لك بالعروس ولا كل العرايس ..

كمال : ومن هى بالله عليك يا أماء ؟؟ .

الوالدة : إنها أخت الوافدة إنها بنت الملك الأبيض ملك المؤمنين من الجان ، وقد أخبرتنا الوافدة أن أختها تحبك وأنت نزلت من نفسها منزلة مكينة ، ولذلك فإنها ترغب الزواج منك .

كمال : بنت ملك الجان ؟ وكيف لى بالوصول إليها ؟ .

الوالدة : أنت وافق ، والباقى علي وعلى الوافدة ، بارك الله فيها وقدر سرها ، وراح كمال يحلم بذلك الزواج ، وما سيكون من شأنه ، وقد سمع الكثير عن مليكة وما لها من الصفات الجميلة والأخلاق الحسنة النبيلة والأيدى البيضاء على أهل القرية .

وافق كمال على هذا الزواج وطارت الوالدة تزف خبر الموافقة إلى « أبى كمال » ثم أسرعاً لنقل الموافقة إلى الوافدة لتقوم هى عنهما بتتيميم مراسم الخطبة وشؤون الزواج

وأعلن رسمياً وأمام جميع المريدات من نساء البلدة عن خطبة كمال إلى مليكة بنت ملك الجان أخت الوافدة ، ودعت الوافدة جميع مريداتها من نساء البلدة وأقامت خيمة من القماش الأبيض فى فناء الدار ، ولما حضرن أخبرتهن الوافدة أنها عقدت عقد أختها مليكة على كمال ، وأنهن فى هذه المناسبة سيقمن حضرة فى هذه الليلة ، حيث يطلق البخور ، ويكشر الإنشاد ويضرب الذكر ، وكان اجتماع ولا كغيره من الاجتماعات . فبدأت النسوة بقرع

الدفوف ، والتهليل والتكبير ، وارتفعت الأصوات ، واشتد قرع الدفوف وخرجت النسوة عن الطور المؤلف ، وصاحت الوافدة قدوس قدوس حضرت أختي ، حضرت أختي وغيرت صوتها وأخذت تتكلم بصوت عريض فهاجت النسوة وماجت واشتد الخشوع وجرت الدموع ، وكلهن يهدرن بصوت واحد : الله الله ... وفي أثناء ذلك نادى الوافدة أم كمال فأقبلت هذه بابنها وأدخلته سرادق الوافدة فاستقبلته هذه وأخبرته أن أختها قد حلت بها وأنها ستكون الواسطة بينه وبينها ، لأن الجان لا يظهرون عى الإنس وأنها الآن ليست الوافدة وإنما هي مليكة بنت ملك الجان ، ودخل كمال على الوافدة والدفوف تعزف والنسوة تهتف واستقبلته الوافدة بالأحضان لتوصله إلى حضن أختها بنت ملك الجان وبنى كمال بزوجته الجنية ولكن عن طريق الوافدة وبواسطتها ، ومنذ تلك الليلة والأوراد تقام ، والحضرة تنعقد ، والأذكار تهدر فى منزل « أبى كمال » إلى أن تحضر أخت الوافدة ، وتلتقى بزوجها كمال لقاء الزوج والزوجة ، والنسوة فى أورادهن خارج الصيوان فإذا قضت الوافدة الجنية لبانتها ، وذافت من كمال عسالته وذاق منها عسالتها أذنت للنسوة بالانصراف وبقيت مع كمال بقية ليلها

كثيرة هى الأمور التى يستطيع الإنسان أن يخفى آثارها ويطمس معالمها ويدفنها فى ضميره إلى الأبد ، أما الزواج فإنه غالباً ما يعلن عن نفسه شاء الإنسان أم أبى ، فقد تظهر آثاره إن عاجلاً أم آجلاً ...

لقد شعرت الوافدة أن البذرة توضع فى أحشائها ، وتمكنت من رحمها ، وأنه لا بد لآثار الزواج أن تظهر واضحة فى تكور بطنها ، وفيما يعقب ذلك من أثقال الحمل ، وآلام الوضع وقدم الجنين ، ولعلها رغبت فى

احتضان هذه البذرة وراحت تتعهدا أماً باحتفاظها بزوجها ، وتوثيق الرابطة الزوجية بينهما

وقد أخذت العيون تتقحمها ، والظنون تخوم حولها ، والألسنة الحداد تتناولها وتنهش من لحمها ، كان أول من لاحظ عليها هذا التغير كمال وأمه وأبوه ، وقد ترددوا كثيراً قبل أن يستطلعوا أمرها ويكشفوا الغامض من سرها ، وعندما رأت هذه الأسرة أن الأعين راحت تتخطفها ، والألسن أخذت تتناولها دفعوا بولداهم كمال يستوضح أمره ويسألها عن حالها ويستفهم منها عن سبب ارتفاع بطنها .

لم يكن كمال يتوقع ما ستفاجئه به هذه الوافدة الماكرة عندما دار بينهما هذا الجوار :

كمال : رأيت الناس يشيرون إليك بالأصابع ، فخفت أن تكوني تعرضت لسوء أو تعرض لك أحد بسوء فأحببت أن أطمئن عليك .

الوافدة : أأنت الذي تسأل هذا السؤال ؟ أأنت زوجي ؟؟ .

كمال : أنا زوجك ؟ .

الوافدة : نعم أنت زوجي ، وإلا فما الذي يأتي بك كل ليلة لسري .؟..

كمال : عجيب أأكون زوجك وزوج أختك في آن واحد ؟؟ .

الوافدة : أختي ؟ ومن قال لك أن لي أختاً ؟؟ .

كمال : أألم تقولي لوالدتي ولجميع النساء اللواتي يفدن إليك أن لك أختاً من الجن هي مليكة بنت الملك الأبيض من ملوك الجان ؟ .

الوافدة : حقيقة أنك غبي ، كنت أظن أنك شريك في اللعبة ، وأنا

نسجنا خيوطها سوية ، وأحكمنا خطنها معاً وأنا لعبنا بعقول الآخرين فزعمنا أنك تزوجت أختي ، وفي الحقيقة أنك تزوجتني أنا وحدي

كمال : أنا .. أنا .. أنا تزوجتك يا مأكرة ، يا قبيحة ، يا كرنيبة ، ومسلك « بخوانيقتها » فصاحت واستغاثت فهرع من في الدار ، وأقبل الجيران فأروهما يتشاتمان : هو يقول لها يا خادعة يا مأكرة ، وهي تقول له : يا أهبل يا غبي ، هو يقول لها : أنا تزوجت أختك مليكة ، وهي تقول له بل تزوجتني أنا ، وأنا حامل منك

والناس يتكاثرون من حولهما والوالدان صامتان مبهورتان لا يدريان ماذا يجري ، والآخرون يتغامزون ويتهايمسون ، ويناجي بعضهم بعضاً نجوى كلها إثم وتجريح وفضيحة .

وبدأ الناس ينصرفون وهم يتلاومون بعضهم يزم شفته والآخريهز برأسه مشيراً نحوهما الله أعلم .. ولا تزال الأيدي مشتبكة والألسن مسلولة والشتائم متبادلة بين كمال والوافدة .

ولم يمض على ذلك يوم أو بعض يوم حتى وضعت السلطة يدها على هذا الوكر الأنيم ، واقتيد كمال والوافدة إلى السجن بتهمة الشعوذة ، وابتزاز المال وتعاطي الفاحشة في السر والعلن

ولا تزال إلى اليوم نسأل كمالاً عن تلك الفترة من تاريخ حياته فيحزن قلبه ، ويكفهر وجهه ، وينعقد لسانه ولا ينيس عن تلك الفترة من زواجه الوافدة أو الحنية بينت شفه ... قلت لمحدثي لعلك تضع قصة وتدير الحديث على لسان نطالها - فابتسم ابتسامه عريضة وقال : لا تذهب بعيداً في ظنك فإنني أنا كمال

[٣٢] الجواب ما تراه لا ما تسمعه

لما نقضت الروم الصلح الذي كان بينهم وبين المسلمين ، وكان الذي عقده هارون الرشيد مع رنا ملكة الروم الملقبة أغسطة ، وذلك أن الروم عزلوها واختاروا عليها النقفور وجعلوه ملكاً عليهم وكان شجاعاً متهوراً فكتب إلى الرشيد : من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب ، أما بعد ، فإن الملكة التي كانت قبلى أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليها ، وذلك من ضعف النساء وحمقهن ! فإذا قرأت كتابي هذا فأررد إليّ ما حملته إليك من الأموال وافتد لنفسك به !! وإلا فالسيف بيننا وبينك !! فلما قرأ هارون الرشيد كتابه أخذه الغضب الشديد حتى لم يتمكن أحد أن يتنظر إليه ولا يستطيع مخاطبته ، ثم كتب على ظهر الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم ، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ... قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه دون ما تسمعه ... والسلام ، ثم قام من فوره وسار حتى نزل بباب هرقله ففتحها واصطفى ابنة ملكها وغنم من الأموال شيئاً كثيراً ، وخرب وأحرق فطلب نقفور منه المودة والصلح على خراج يؤديه إليه في كل سنة .

فأجابه الرشيد إلى ذلك ، فلما عاد الرشيد إلى « الرقة » بسورية نقض نقفور ، فلما علم الرشيد قال : أوقد فعلها ! فكر راجعاً حتى أناخ بفنائها ونال مراده وأخذ منه الجزية أضعافاً مضاعفة جزاء غدره ، قال المؤرخون : الضربات التي وجهها الرشيد للروم لم تستفك منها عشرات السنين .

[٣٣] خادم أم خادمة؟! (١)

بعد انتظار دام زماناً قدمت الخادمة من الفلبين .. غمر الفرحه جميع أفراد العائلة الثرية .. رحب بها الجميع وبدأت أعمالها بعدما تعرفت على جميع أفراد الأسرة ، وجالت في البيت تتأمل غرفه وأروقته ..

تحدثت ربة البيت مع أخواتها وجاراتها وصديقاتها عبر الهاتف لتزف لهن البشرى بقدم الخادمة الفلبينية الجميلة ، تفانت الخادمة في عملها ، وقدمت كل جهدها ، ونالت إعجاب الجميع .

شعرت ربة المنزل براحة عندما كانت الخادمة تمسك بيدها ، أو تحس رأسها أثناء المرض ، أو تمشط لها شعرها ..

اكتشفت فيها مهارة جديدة .. علمت أنها تجيد التدليك .. طلبت منها أن تدلك لها جسدها .. لم تمنع الخادمة .. بل رحبت بذلك أيما ترحيب .

كانت تشعر ربة المنزل بالسرور أثناء التدليك .. ذكرت ذلك لزوجها ومدحت قدرة الخادمة وأسلوبها العجيب في التدليك .. طلبت من زوجها أن يجرب .. نعم طلبت منه ذلك دون أن تشعر بالخرج لكون الخادمة أنثى .. ووافق الزوج بعد تردد .. وتكرر ذلك مراراً .. وصار يشعر بلذة أثناء التدليك .. وجعل الشيطان يقربه أكثر فأكثر من الخادمة .. أخذ يلاطفها ويلاعبها ويتودد إليها .. ثم بدأت الوسوس تشدد أكثر فأكثر .. شعر بهاجس يدعو لفعل الفاحشة أخذ يتحين الفرصة ..

(١) حوادث واقعية للحميدى .

وفى يوم من الأيام وبعدما أوصل عائلته لبيت أحد أقربائه ، عاد إلى البيت مسرعاً فرحاً بما سيفعل من المنكر العظيم .. ودخل المنزل وقد أعمى الشيطان قلبه .. وهرع نحو الخادمة وطلب منها أن تقوم بتدليكه .. لم تمنع الخادمة .. اقترب منها وطلب أن تمكنه من نفسها .. رفضت بشدة .. حاولت الهرب .. أمسك بها .. دفعته وحاولت التفلت من بين يديه .. جعل يجردها من ملابسها نظر إليها ...

يا للهول .. ماذا أرى ؟!! .

كانت المفاجأة مذهلة .. إنها رجلٌ وليست امرأة .. وامصيبتاه .. ماذا أفعل ؟ ، شعر الرجل بخجله من نفسه .. تذكر كيف كان هذا الرجل يدلك جسد زوجته .. مجنون أنا .. كيف قبلت بهذا ؟؟ .

تصبب العرق من جبينه .. ضاقت عليه الأرض بما رحبت .. لا بد أن أتخلص منه .. وسارع إلى مكتب لتفسير الخادمة التى تبين أنها رجل ، وسلمه الخادمة وطلب منه أن يقوم بتسفيرها بأسرع وقت ممكن .

تمتم بكلمات ... ترى كم رجل فى بيوت المسلمين بزي امرأة ؟!! .



❖ [٣٤] أمين ❖

قال أحد التجار :

قصدت الحج في بعض الأعوام ، وكانت تجارتى عظيمة ، وأموالى كثيرة ، وكان فى وسطى هَمِيَّانٌ ^(١) فيه دنائير وجواهر قيِّمة ، وكان الهَمِيَّان من ديباج أسود .

فلما كنت ببعض الطريق نزلت لأقضى بعض شأنى ، فانحل الهَمِيَّان من وسطى ، وسقط ولم أعلم بذلك إلا بعد أن سرت عن الموضع فراسخ ، ولكن لم يكن يُؤثر فى قلبى لِمَا كنت أحتويه من غنى ، واستخلفت ذلك المال عند الله ، إذ كنت فى طريقى إليه تعالى .

ولما قضيت حاجتى وعدت وتتابعت المحنُ علىَّ حتى لم أملك شيئاً ! فهربت على وجهى من بلدى ، ولما كان بعد سنين من فقرى ، أفضيت إلى مكان وزوجى معي ، وما أملك فى تلك الليلة إلا دانقاً ونصفاً ، وكانت الليلة مطيرة ، فأريت فى بعض القرى إلى خان خراب ، فجاء زوجى المخاض فتحيرت ثم ولدت ، فقالت : يا هذا ، الساعة تخرج روحى ، فاتخذ لى شيئاً أتقوى به فخرجت أخط فى الظلُّمة والمطر حتى جئت إلى بدال فوقفت عليه ، فكلمنى بعد جهد ، فشرحت له حالى ، فرحمنى وأعطانى بتلك القطع حُلَّةً وزيتاً وأغلاهما ، وأعارنى إناء جعلت ذلك فيه ، وجئت أريد الموضع ، فلما مشيت بعيداً وقربت من الخان زلَّقت رجلى ، وانكسر الإناء وذهب جميع ما فيه ،

(١) الهَمِيَّان : كيس يُجعل فيه النفقة ، ويُندُّ على الوسط .

فورد على قلبى أمر عظيم ما ورد عليّ مثله قط ! فأقبلت أبكى وأصيح ، وإذا
برجل قد أخرج رأسه من شباك فى داره ، وقال : ويلك ! مالك تبكى ؟ ما
تدعنا ننام .

فشرحت له القصة فقال : يا هذا ، البكاء كله بسبب دائق ونصف ! .

قال : فداخلى من الغم أعظم من الغم الأول فقلت : يا هذا والله ما
عندى شيء لما ذهب منى ، ولكن بكائى رحمة لزوجى ولنفسى ، فإن امرأتى
تموت الآن جوعاً ، والله لقد حججت فى سنة كذا وكذا وأنا أملك من المال
شيئاً كثيراً ، فذهب منى هميان فيه دنائير وجواهر تساوى ثلاثة آلاف دينار فما
فكرت فيه ، وأنت ترانى الساعة أبكى بسبب دائق ونصف ، فاسأل الله
السلامة ، ولا تعيرنى فتبتلى بمثل بلوى .

قال : فقال لى : يا الله يا رجل ، ما كانت صفة هميانك ؟ فأقبلت أبكى
وقلت : ما ينفعنى ما خاطبتنى به ، أو ما تراه من جهدى وقيامي فى المطر حتى
تستهزئ بى أيضاً ! وما ينفعنى وينفعك من هميانى الذى ضاع منذ كذا
وكذا ؟ .

قال : ومشيتُ فإذا بالرجل قد خرج وهو يصيح بى : خذ يا هذا : فظننته
يتصدق عليّ ، فجئت وقلت له : أى شيء تريد ؟ فقال لى : صفْ هميانك ،
وقبض عليّ ، فلم أجد للخلاص سبيلاً غير وصفه له ، فوصفته فقال لى :
ادخل ، فدخلت فقال : أين امرأتك ؟ قلت : فى الخان ، فأرسل غلمانه
فجاءوا بها ، وأدخلت إلى حرمة ، فأصلحوا من شأنها وأطعموها كل ما تحتاج
إليه ، وجاءونى بجبة وقميص وعمامة وسراويل وأدخلت الحمام ، وقال : أقم
عندى أياماً فأقمت عشرة أيام ، كان يعطينى فى كل يوم عشرة دنائير وأنا متحير

فى عظم برء بعد شدة جفائه ! .

فلما كان بعد ذلك قال لى : فى أى شىء تتصرف ؟ قلت : كنت تاجراً ، قال : فلى غلات وأنا أعطيك رأس ما تتجر فيه وتشركنى ، فقلت : أفعل . فاخرج لى مائة دينار ، فقال : خذها وانجر فيها هاهنا . فقلت : هذا معاش قد أغنانى به الله يجب أن ألزمه فلزمته .

فقال : اجلس ، فجلست فاخرج لى هميانى بعينه وقال : أتعرف هذا ؟ فحين رأيت شهقت وأغمى علىّ فما أفقت إلا بعد ساعة ! ثم قلت له : يا هذا ، أملك أنت أم نبي ! فقال : أنا أحفظه منذ كذا وكذا سنة ، فلما سمعتك تلك الليلة تقول ما قلته ، وطالبتك بالعلامة فأعطيتها أردت أن أعطيك للوقت هميانك ، فخفت أن يغشى عليك ، فأعطيتك الدنانير التى أوهمتك أنها هبة ، وإنما أعطيتها من هميانك ، فخذ هميانك واجعلنى فى حل ، فشكرته ودعوت له .

وأخذت الهميان ورجعت إلى بلدى ، فبعت الجواهر وضممت ثمنه إلى ما معى وانجرت ، فما مضت إلا سنوات حتى صرّت صاحب عشرة آلاف دينار وصلحت حالى .



[٣٥] رزق الله

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « دخل رجل على أهله فلما رأى ما بهم من الحاجة خرج إلى البرية ، فلما رأت امرأته ما لقي قامت إلى الرحي فوضعتها ، وإلى التنور فسجرتة ثم قالت : اللهم ارزقنا ، فنظرت فإذا الجفنة قد امتلأت ، قال : وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئاً قال : فرجع الزوج . قال : أصبتم بعدى شيئاً ؟ قالت امرأته : نعم من ربنا ، فرفعتها إلى الرحي ثم قامت ... فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : « أما إنها لو لم ترفعها لم تزل تدور إلى يوم القيامة » .

[رواه أحمد بإسناد صحيح] .

وروى الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة قال : « أصاب رجلاً حاجة ، فخرج إلى البرية ، فقالت امرأته : اللهم ارزقنا ما نعتجن به ، وما نخبز ، فقالت امرأته : اللهم ارزقنا عجينة ، وفي التنور « الفرن » الشواء ، والرحي تطحن فقال : من أين هذا ؟ قالت : من رزق الله ، فكنس ما حول الرحي ، فقال رسول الله ﷺ : « لو تركها لدارت أو طحنت إلى يوم القيامة » .

[أورده الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة] .



[٣٦] توبة امرأة من السحر ^(١)

عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت :

قدمت امرأة من « دومة الجندل » ^(٢) تبتغي رسول الله ﷺ بعد موته ،
 حادثة ذلك تسأله عن شيء دخلت فيه من أمر السحر ولم تعمل به ، قالت
 عائشة لعروة : يا ابن أختي ! فرأيتها تبكي حتى إني لأرحمها ؛ تقول : إني
 أخاف أن أكون قد هلكت ، كان لي زوج فغاب عني ، فدخلت عليّ عجوز
 فشكوت ذلك إليها ، فقالت : إن فعلت ما أمرك به يأتك ، فلما أتاها الليل
 جاءتنى بكلبين أسودين ، فركبت أحدهما وركبت الآخر ، ولم يكن كشيء
 حتى وقفنا بـ « بابل » فإذا برجلين معلقين بأرجلهم فقالا : ما جاء بك ؟
 فقالت : أتعلّم السحر ، فقالا : إنما نحن فتنة ، فلا تكفري وارجعي ، فأبيت
 وقلت : لا . قالا : فاذهي إلى ذلك التنور فبولي فيه ، فذهبت ففرغت فلم
 أفعل ، فرجعت إليهما ، فقالا : أفعلت ؟ فقلت : نعم ، فقالا : هل رأيت
 شيئاً ؟ قلت : لم أر شيئاً ، فقالا : لم تفعلی ! ارجعي إلى بلدك ولا تكفري ،
 فأبيت ، فقالا : اذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه ، ثم إني ذهبت فاقشعر
 جلدي وخفت ، ثم رجعت إليهما ، فقلت : قد فعلت ، فقالا : ما رأيت ؟
 فقلت : لم أر شيئاً ، فقالا : كذبت ، لم تفعلی ، فارجعي إلى بلدك ولا
 تكفري ، فإنك على رأس أمرك فذهبت فبلت فيه ؛ فرأيت فارساً متقنعاً بحديد

(١) الثابتون إلى الله ، للمحازمي .

(٢) دومة الجندل : بضم الدال وفتحها ، وقد أنكر ابن دريد الفتح وعده من أغلاط المحدثين وهي على
 سبع مراحل من دمشق بينها وبين مدينة الرسول ﷺ وسميت دومة الجندل لأن حصنها مبني
 بالجندل ، أي الحجارة .

خرج منى فذهب إلى السماء وغاب عني حتى ما أراه ، وجئتهما فقلت : قد فعلت ، فقالا : ما رأيت ؟ قلت : رأيتُ فارساً متقنعاً بحديد خرج منى فذهب فى السماء حتى ما أراه ، فقالا : صدقت ! ذلك إيمانك خرج منك ؛ اذهبي . فقلت للمرأة : والله ما أعلم شيئاً ، وما قالوا لى شيئاً ، فقالت : بلى ! لن تريدى شيئاً إلا كان ، خذى هذا القمح فابذرى ، فبذرت ، فقلت : أطلعى ، فأطلعت ، فقلت : الحقى ، فلحققت ، ثم قلت : افركى ، ففركت ، فقلت : ايسى ، فيبست ، ثم قلت : اطحنى ، فطحنت ، ثم قلت : اخبزى فخبزت ، فلما رأيت أنى لا أريد شيئاً إلا كان سقط فى يدى وندمت ، والله يا أم المؤمنين ما فعلت شيئاً قط ولا أفعله أبداً ، فسألت أصحاب رسول الله ﷺ حادثة وفاة رسول الله ﷺ ، وهم متوافرون ، فما دروا ما يقولون لها ، وكلهم هاب وخاف أن يفتيها بما لا يعلمه .



[٣٧] مأساة مروعة

[الحمى الموت]^(١)

كان يكذب ويشقى الليل مع النهار لتلك المرأة التي اقترن بها ، وزيادة على ذلك التعب الصباحي وبعد أن كثر أولاده ، اضطر للعمل على سيارة أجرة يزيد بها من دخله ، وفي أحد الأيام وهو في كده وتعبه في سيارة الأجرة وقريباً من المغرب ، وإذا بامرأة من الجنسية الآسيوية تستوقفه لإيصالها إلى المستشفى فلما علم موظفو المستشفى أن حالتها صعبة جداً أخذوا منه رقم هاتفه ، وبعد ساعات اتصلوا به يطلبون حضوره حالاً ، فلما سألهم عن السبب ، قالوا : إن زوجته قد ولدت طفلاً ، فرد عليهم بغضب : زوجتي معي الآن في البيت وليس عندي غيرها ، قالوا : المهم حضورك فوراً ، فلما وصل إلى إدارة المستشفى قال : ما هذه النكتة البايخة ، التي أطلقتموها عليّ ؟ الحمد لله أن زوجتي لم تسمعكم ولو سمعتكم لقامت قيامتي في البيت ، فقالوا : لم نطلق نكتة حتى تصبح بايخة ، فالمرأة التي أوصلتها لما سألناها من زوجك أبو هذا الطفل ؟ قالت : صاحب السيارة الأجرة التي أوصلني ، فقال : أعوذ بالله من غضب الله ، ما هذا الافتراء ؟ صحيح أن « المصائب تأتيك وأنت نائم » فأراد أن يصحح هذا الاتهام ويخرج منه فطلب منهم أخذ عينة من دمه ودم الطفل ، فلما قاموا بذلك وأثناء انتظاره للنتيجة ويدد على قلبه من ربه أن يخرج من هذه

(١) قال ﷺ : « إياكم والدخول على النساء » فقال رجل يا رسول الله : أفرأيت الحمى ، قال : الحمى الموت . الحمى : أخو الزوج أو أقاربه .

الورطة ، وإذا بالطبيب يقول له : نأسف على أذيتك وانشغالك معنا ، فلا دمك يوافق دم الطفل ولا أنت تستطيع الإنجاب لأنك عقيم !! .

فقال الرجل : وهذه نكتة أبوخ من سابقتها ، فأنا متزوج من سنين وعندي من الأولاد ستة وتقولون إنى عقيم !! ، افحصوا مرة أخرى وشدد عليهم فى ذلك ، فأعادوا التحاليل وجاءه الطبيب مؤكداً على نتيجة الفحص الأول قائلاً : يا أخى أما قلت لك إنك عقيم لا تنجب !!؟؟ .

فخرج الرجل من مصيبة ودخل فى أخرى .. ولما قام بالتحقيق والمتابعة إذ بأخيه يعاشر زوجته طيلة تلك السنين ، وهو مؤتمن عليه فى ماله وأهله ، فاعترف الاثنان بجريمتهم البشعة المأساوية الشنيعة ، فكانت المرأة الأسويية سبباً فى ذلك ، فلم يستطع الثلاثة الزوج والزوجة والأخ أن يفلتوا مما قدره الله وكتبه عليهم ، وصدق الله القائل : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١) ، (٢) .



(١) بتصرف من مجلة النور الكويتية « عدد ١٥٩ » .

(٢) سورة إبراهيم الآية « ٤٢ » .

[٣٨] انتقام الجبار

توفى زوجها وترك لها ٧ أولاد ، فترك أكبرهم دراسته لكي يعول والدته وأخوته وعمل في حانوت أبيه ... وبعد ثلاث سنوات دعى الولد الكبير إلى الخدمة الإلزامية فبرزت عند ذلك مشكلة أخرى وهى : من ينفق على هذه العائلة ، هل يضحي الابن الثانى بالدراسة كما ضحى أخوه ... كان هناك حل واحد فقط لإعفاء الأخ الأكبر من الخدمة الإلزامية ، وهو دفع البديل النقدي ، واجتمعت العائلة واستقر رأيهم على رهن البيت الذى يسكنون فيه ، وبالفعل رهن البيت بأربع مائة دينار ، وبعد إجراء عملية الرهن انطلقت الأم العجوز إلى محطة تجمع سيارات الأجرة لكي تسافر إلى المدينة التى تبعد عنهم بأكثر من مئتين وأربعين كيلو متراً لدفع البديل النقدي عن ولدها - قبل انقضاء مدته بيوم واحد - وعند المحطة لم يكن هناك مسافرون كثيرون وانتظرت الأم وانتظرت قرابة الساعة ، فلم يأت أحد وأشرفت الشمس على الغروب ، فكان لابد لها أن تستأجر سيارة خاصة لتوصيلها قبل أن ينتهى مدة سداد البديل ، واستأجرت السيارة ثم انطلقت بها بعد أن قبض السائق أجرته كاملة ، وكانت الطريق بين المدينتين تمر بين جبال ووديان وبعد ابتعاد السيارة عن المناطق المأهولة ، واقتربها من المناطق الخالية ، تحدث سائق السيارة مع العجوز ... ولعله سألها عن سر استعجالها فى ذلك ، فقصت عليه قصة بيع البيت وقصة دفع البديل النقدي عن ولدها ، فلعب الشيطان بعقل الرجل وبعد قليل أوقف السيارة على الجانب الأيمن بقرب وادٍ سحيق .. ونزل وفتح الباب على المرأة وسحبها من السيارة سحباً ، ولم تستطع المسكينة أن تقاوم ، وأخرج المجرم سكيناً وأوسعها

طعنًا ثم أخذ ما معها من مال ، وسقطت المرأة متضرجة بدمائها وهي تئن وتنزف الدماء غزيرة ، وليس بقربها مخلوق في هذا المكان الموحش المنقطع ، وركب الرجل سيارته ووصل إلى المدينة وعاد محملاً بالركاب ، وعندما اقترب من مسرح جريمته أوقف السيارة وادعى أنه سيقضى حاجته ، ولم يكن الركاب يعلمون ما اقترفت يده .. لقد أراد المحرم أن يتأكد من موت العجوز لأنه تركها وهي تئن وتعالج السكرات ... ونظر الرجل إلى ضحيته فوجدها ما زالت تئن وهي على قيد الحياة لم تمت بعد ، وإذا بالظالم ينحنى ويأخذ حجراً عظيماً ويرفعه إلى أعلى صائحاً أيتها الملعونة ألا زلت على قيد الحياة حتى الآن ... وجمدت المرأة ... وكأنها تنظر إلى أجلها وفي تلك اللحظة انطلقت من السائق صرخة مدوية هزت الوادي ... فقد كان تحت هذه الصخرة ثعبان عظيم لدغ هذا المحرم قبل أن يجهز على هذه المسكينة ، ونزل الركاب من السيارة على هذه الصرخة المدوية ... فإذا بهم يشاهدون السائق جثة هامدة ، وامرأة تئن وتتمتم بكلام غير مفهوم ... وحمل السائق والمرأة وجاءت الشرطة وحملت المرأة إلى المستشفى وبين تأوهاتهما طلبت ولدها ثم راحت في غيبوبة طويلة ... فظن الممرضون أنها تعاني من سكرات الموت ... وفي اليوم التالي أفاقت المرأة من غيبوبتها ... وحققت الشرطة في الأمر وأخذوا الأموال من المحرم وأعادوها للمرأة ثم قالت لولدها وهي في شبه غيبوبة ، ادفع البدل سريعاً ... وأغمضت عينيها وذهبت في غيبوبة أخرى ... ولكنها لم تمت .. ويوماً بعد يوم تحسنت حالتها الصحية والمادية وفرج الله عنها ... وها هو راوى القصة اللواء الركن « محمود شيت خطاب » يذهب إلى دارها الجديدة العامرة ويسألها ... مالذي كنت تقولينه وأنت ملقاه في الوادي ؟ فترد العجوز المؤمنة كنت أقول : « يا جبار

السموات والأرض أنت أعلم بحالى فهى لى بقدرتك القادرة أسباب دفع البذل
النقدى عن ولدى ليعود إلى أهله ويعيلهم ... يارب » .

يالها من مناجاة ... يالها من تضحية ... لم تفكر فى غزارة الدم الذى
يسيل منها ولم تفكر أنها لربما ترحل عن الدنيا بعد ثوان معدودة ولكنها
فكرت فى كيفية إعالة أولادها ... وبعد المناجاة جاء الفرج من رب الأرض
والسموات ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ ^(١) ، إنه الله
جل جلاله ^(٢) .



(١) سورة النمل الآية « ٦٢ » .

(٢) عدالة السماء محمود شيت خطاب « بتصرف واختصار » .

[٣٩] من أطيع ... ؟

انتهى اليوم الدراسى ، وعادت الفتاة الصغيرة إلى منزلها وقد غشى وجهها سحابة من الحزن ، ولحت الأم الحنون أن هناك أمراً يعتمل في نفس صغيرتها ولم تحتج إلى جهد لتفصح الفتاة وتقول الفتاة : أماء ! إن مدرستى هددتنى بالطرد من المدرسة لأجل هذه الملابس الطويلة التى ألبسها ! .

الأم : ولكنها الملابس التى يريدتها الله ! .

الفتاة : نعم يا أماء ، ولكن المدرسة لا تريدتها ! .

الأم : حسناً يا ابنتى ، المدرسة لا تريد ، والله يريد ... فمن تطيعين ؟ ، أتطعين الله الذى أوجدك وصورك وأنعم عليك ؟ أم مخلوقة لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً .

الفتاة : بل أطيع الله .

الأم : أحسنت يا ابنتى وأصبت .

وفى اليوم التالى انفجرت المدرسة غاضبة مؤنبة تلك الفتاة التى تتحدى إرادتها ولا تستجيب لطلبها ، ولا تخاف من تهديدها ووعيدها ، ولما زادت فى التبكيت وثقل الأمر على الصغيرة ولم تستطع أن تواجه ذلك السيل من المدرسة وتلك النظرات من زميلاتهما ، عند ذلك انخرطت فى بكاء شديد ، ذهلت له المدرسة وجعلها تتوقف وتهداً ، ثم قالت الفتاة : والله لا أدرى من أطيع ؟ أنت أم هو ؟ .

المدرسة : ومن هو ؟ .

الفتاة : الله ، أطيعك أنت فألبس ما تريدن وأغضبه هو ؟ ، أم أطيعه وأعصيك ؟ ، سأطيعه سبحانه وليكن ما يكون ...

وسكتت المدرسة وفي اليوم التالي دعت المدرسة أم الفتاة لتقول لها المدرسة : لقد وعظمتي ابنتك أعظم موعظة سمعتها في حياتي ^(١) .



(١) محاليس النساء .